حج النخب في السودان الغربي ودوره في التواصل الثقافي مع العالم العربي من خلال حجتي منسا موسى وصالح الفلاني

الدكتور محمد المختار ولد السعد
جامعة نواكشوط – موريتانيا

يحتل الحج مكانة كبيرة في نفوس مسلمي غرب إفريقيا الذين تعلقوا –مبكراً –بأداء هذا الركن الإسلامي حتى أصبح لقب "الحاج" من أحظى الألقاب لديهم. وإذا كانت الرغبة في أداء فريضة الحج حاضرة لدى عموم المسلمين، فإنها في هذا الركن القصي من دار الإسلام، لم تكن متاحة إلا لخاصة الخاصة من أهله –أو من سار في ركابهم –لنأي الدار، وقصور ذات اليد، وخوف السبيل... ولذا، كانت ركاب الحج في المنطقة قد تكونت، في بداية أمرها، في أحضان السلط السياسية القائمة، وكان من أشهرها ركب الحج التكروري الذي لعب دوراً أساسياً في استمرار التواصل مع العالم العربي وتوطيد أسس ذلك التواصل. وبلغ هذا الركب أوج تطوره في القرن 14م مع انتقال مركز الثقل إلى المحور الأوسط من محاور التجارة عبر الصحراء في المنطقة [1]، وكانت رحلة حج الملك منسا موسى أشهر رحلة عرفها.

ويسعى هذا البحث إلى إبراز ما للحج وركابه من دور كبير في تواصل مسلمي غرب إفريقيا مع المسلمين في مشرق العالم العربي ومغربه، من خلال نموذجين محددين كان لهما أثرهما البالغ في عملية التواصل الثقافي بوجه خاص. وهذان النموذجان هما حجة ملك مالي منسا موسى الأول (707–733هـ/ 1307–1332م) الشهيرة في نهاية الربع الأول من القرن الثامن الهجري، وحجة العالم المحدث صالح الفلاني (1166–1218هـ/1752–1803م) في تسعينيات القرن الثاني عشر الهجري.

وسنُمحِّض الحديث في الجزء الأول من هذا البحث لرحلة منسا موسى وما امتازت به عن غيرها من رحلات الحج الملكية التي سبقتها في المنطقة، سواء من حيث ضخامتها، وما اشتملت عليه من مظاهر الثراء والأبهة، أو ما تولد عنها من نتائج بوجه عام، وعلى مستوى التواصل الثقافي مع العالم العربي بوجه خاص.

حجة المنسا موسى: رمز تألق مالي وتوسع علاقاتها الخارجية

عرف عن أهل السودان الغربي تعلقهم الشديد بأداء فريضة الحج، وما امتاز به ملوكهم من حرص –عزّ نظيره في الغرب الإسلامي –على أداء هذه الفريضة. وإذا تركنا جانباً حج أميري صنهاجة محمد بن تيفاوت المعروف بتارشني ويحيي بن إبراهيم الكَدالي في الثلث الأول من القرن الخامس الهجري، فإن مسلمي السودان الغربي قد تعاطوا الحج –على ما يبدو مما هو متاح من مصادر –منذ أوائل القرن السادس الهجري على الأقل، حيث يقول الزهري [2]، في أربعينيات هذا القرن، عن أهل "جناوة" (غانة) ما نصه: "وهم اليوم مسلمون وعندهم العلماء والفقهاء والقراء وسادوا في ذلك، وأتي منهم إلى بلاد الأندلس رؤساء من أكابرهم وساروا إلى مكة وحجوا وانصرفوا إلى بلادهم".

وحجَّ العديد من ملوك مالي التي ورثت مملكة غانة، حيث تذكر المصادر أن ثلاثة منهم قد أدوا فريضة الحج قبل الملك منسا موسى. وحسب ما ذكره ابن خلدون [3]، فإن أول هؤلاء هو "برمندانه" الذي يُعتقد أنه تولى الحكم في الربع الأخير من القرن السادس الهجري، ويميل الدارسون المعاصرون [4] إلى أن يكون هو نفسه المانسا باريمون الموجود في قائمة ملوك المانديغ الحديثة.

ثم قفا سبيله في الحجِّ ابن مؤسس إمبراطورية مالي سندياتا[5] كيتا: "منسا ولي" (حكم ما بين 652–669هـ/1255–1270م) الذي حج أيام الظاهر بيبرس (659–675هـ) في مصر، و"ساكورة" الذي حكم من (684–700هـ/ 1285–1300م) بعد فترة اضطراب عرفتها إمبراطورية مالي، وحج في عهد الملك الناصر محمد بن قلاوون (693–741هـ).

وكان ساكورة، وهو أحد موالي الأسرة الحاكمة وقواد سونديانا، قد وضع حداً لفترة اضطراب عرفتها إمبراطورية مالي

بعد منسا ولي، واستعاد هيبتها ووسع حدودها بإحكام سيطرته على الحوض الأوسط لنهر النيجر وأخضع السونغاي لنفوذه. وسافر في آخر عهده إلى الديار المقدسة لأداء فريضة الحج، وقتل في مآبه منه سنة (700هـ/1300م) على أيدي قطاع طرق في تاجوراء بالقرب من طرابلس التي كانت من أخطر محطات ركاب الحج المغربية والسودانية [6].

وخلف ساكورة على العرش ملكان ضعيفان، قبل أن ينتقل إلى أحد أبناء إخوة سوندياتا، هو منسا موسى الأول الذي حكم مالي من (707 إلى 733هـ/1307-1332م)، وحج سنة (724هـ/1324م)، وبلغت مالي في عهده أوج عظمتها وتألقها.

1-منسا موسى ورحلته إلى الحج:

هو منسا كانكو موسى بن أبي بكر بن ماغان كيني، أشهر سلاطين مالي، وتاسعهم في الترتيب السلالي، ورابع من يؤدي منهم فريضة الحج. قال ابن فضل الله العمري [7] إنه "أعظمُ ملوك السودان المسلمين وأوسعُهم بلاداً، وأكثرُهم عسكراً، وأشدُّهم بأساً، وأعظمُهم مالاً، وأحسنُهم حالاً، وأقهرُهم للأعداء، وأقدرُهم على إفاضةِ النَّعْمَاءِ". وبالغ فيما له من قوة عسكرية حين قال: "ومقدار عسكره مئة ألف نفرٍ منهم نحوُ عشرةِ آلاف فارس فرسانٍ خيالةٍ، وسائرهم رجَّالة لا خيل لهم ولا مركب..."[8]. ووصفه بأنه كان "متديناً محافظاً على الصلاة والقراءة والذكر"[9].

وقال عنه ابن خلدون [10] إنه "كان رجلاً صالحاً وملكاً عظيماً، له في العدل أخبار تؤثر عنه". ووصفه المقريزي [11] وصفا ماديا -فيما تناهى إليه من أخبار حجته الشهيرة -فقال: "لقد كان شابا أسمر البشرة، جميل المحيى، حسن الهيئة، عالماً بفقه المالكية. وكان يبدو بين صحبه حسن الهندام مطهم الجواد، وفي معيته ما يربو على العشرة آلاف من رعيته، وقد حمل من الهبات والهدايا ما يدهش الرائي لروعته".

وقد عرفت الإمبراطورية في عهده أقصى توسعها، وأوج تألقها وانتشار صيتها على الساحة الدولية والاهتمام بها على ضفتي البحر الأبيض المتوسط، بل اعتبر البعض [12] أن شخصية مانسا موسى البارزة قد سيطرت على القرن الرابع عشر الميلادي.

ويذهب المختصون في تاريخ مالي [13] إلى أن منسا موسي قد بادر بعد توليه العرش إلى توسيع نفوذ الإمبراطورية، وتوطيد أركان السلطة المركزية فيها، وإحكام تنظيم شؤونها السياسية والإدارية. وأعانه على ذلك قائده المحنك "ساران مندیان" الذي وطد هذه السلطة في عموم سهل النيجر، وأخضع البداة الرحل الذين كانوا يشكلون مصدر تمرد وقلق على أمن الطرق الصحراوية؛ ممهداً بذلك الطريق لرحلة الملك إلى الحج في وقت ما يزال صدى اغتيال ساكورة، على يد قطاع طرق صحراويين، عالقا بالأذهان.

وقد أعدَّ منسا موسى رحلته إلى الحجِّ بدقة كبيرة على مدى سنة كاملة، وفق ما تقتضيه مكانة الرجل، وسمعة بلده، وظروف السفر آنذاك عبر المسافات البعيدة. فعمد أولا إلى تهيئة المتطلبات المادية، وطلب لذلك مساهمة خاصة من جميع المدن التجارية والمقاطعات. وفي هذا الصدد يقول صاحب تاريخ الفتاش [14] إن الملك لما عزم على أداء فريضة الحج "قام بجمع المال والجهاز للسفر، ونادي من بأرضه من كل جانب بطلب الزاد والعون...". واتخذ قبل سفره ما يلزم من احتياطات لمواجهة الطوارئ، وكان في مقدمتها استنابة ابنه محمد (منسا ميغا) وتعيينه وَصِياً على العرش إلى حين عودته [15].

وتجمع الروايات التاريخية على أهمية عدد الرفقة التي صاحبت الملك إلى الديار المقدسة، وإن اختلفت بشأن الأرقام أيما اختلاف لا يخلو من مبالغة. فقد عزا ابن خلدون لصاحبه المعمر أبي عبد الله بن خديجة الكومي، الذي لقي منسا موسى بغدامس مُنْصَرَفَه من الحج، قوله إن مَنْ يحملن من الوصائف خاصة آلته وحربته "اثنا عشر ألفاً لابسات أقبية الديباج والحرير اليماني"[16]؛ مع إشارته إلى أن الماليين "إنما يحملون على الوصائف والرجال في أوطانهم فقط، وأما السفر البعيد كالحج فعلى المطايا". ومرّ بنا قول المقريزي إنه كان في "معيته ما يربو على العشرة آلاف من رعيته". أما ابن كثير [17]، الذي تحدث عن قدومه القاهرة برسم الحج في الخامس والعشرين رجب من سنة أربع وعشرين وسبعمائة، فقال إنه "نزل بالقرافة ومعه من المغاربة والخدم نحو من عشرين ألفا، ومعهم ذهب كثير". وعزا محمود كعت (ت. 1002هـ/1596م) [18] للقاضي سيدي

أحمد بن أحمد بن اندغ محمد (ت. 1045هـ/1635م) قوله إن منسا موسى خرج إلى الحج ومعه ثمانية آلاف من قومه.

وذهب صاحب تاريخ السودان [19] إلى القول إنه مشى "في قوة عظيمة وجماعة كثيرة، والجند منهم ستون ألفاً رجالاً، ويسعى بين يديه إذا ركب خمسمائة عبد، وبيد كل واحد منهم عصى من ذهب، في كل منها خمسمائة مثقال ذهب...". وتضيف هذه الرواية اللاحقة للحدث بثلاثة قرون والموظَّفة –على الراجح –للتقاليد المروية في المنطقة، أنه قد تخلف في توات "كثير من أصحابه لوجع رجله أصابه في ذلك المشي، تسمى توات في كلامهم، فانقطعوا بها وتوطنوا فيها...".

ومهما كان التضارب في أرقام من رافقوا منسا موسى في رحلته إلى الحج، فإن الإجماع منعقد على أن أعدادهم كانت كبيرة ولافتة للنظر بمقاييس الوقت. وكان من بين من رافقوه زوجته "أنار كُنت" وخمسمائة من نسوتها وخدمها، وعدداً كبيراً من الأمراء، وحكام الأقاليم، والفقهاء والقضاة، ومئات الجنود لحماية الركب من خطر الاعتداءات المحتملة. وتَوَلَّى قيادة الركب ودلالته أحد خدم الملك يدعى سلمان بن يعت.

وانطلق الركب من عاصمة ملكه "تياني" الواقعة على نهر سونكاراني (أحد روافد نهر النيجر) في موكب مهيب، بلغ من الضخامة حداً جعل محمود كعت [20] يعزو إلى التقاليد المروية قولها إن طلائع القافلة بلغت تنبكتو في حين كان السلطان ما يزال في قصره في نياني. ولم تحدد المصادر متى خرج الركب السلطاني من مالي في اتجاه الحجاز، لكننا نعرف أنه وصل مصر في أواخر سنة (724هـ/1324م)، وتوجه منها إلى الديار المقدسة بعد مقام دام زهاء خمسة أشهر.

كما لم تحدد مصادرُنا بدقة الطريقَ التي سلكها ركب السلطان؛ فنحن وإن كنا نعرف بعض محطاتها الكبرى، إلا أن البعض الآخر غير معروف على وجه التحديد. فقد انطلق هذا الركب من "تياني" إلى "ميمة"، فولاتة، وتغازة، وتوات، وورقلة (واركلان ابن خلدون). أما المحطات السابقة للوصول إلى القاهرة –التي توجه منها موكب السلطان ضمن الركب المصري إلى مكة –من ورقلة فتبقى افتراضية بالأساس، حيث افترض بعض الباحثين [21] أن تكون غدامس، وطرابلس، والأسكندرية؛ بينما رجح البعض الآخر [22] أن يكون الركب قد اتجه من ورقلة إلى الساحل التونسي مما مكن التجار الأوربيين المبادلين في الأسواق التونسية من مشاهدة الموكب السلطاني. ومن هناك، فالطريق إلى طرابلس مألوف في رحلات الحج البرية.

أما في طريق العودة، فإن الركب السوداني قد انطلق بمفرده من مكة وتاه في صحراء الحجاز، "فهلك الكثير من أصحابه وجماله بالبرد حتى لم يصل معه [إلى مصر] إلا نحو الثلث منهم"، حسب تعبير المقريزي [23]. أما ابن خلدون [24] فقد قال إن موكب منسا موسى "رجع فأصابته في طريقه بالحجاز نكبة تخلصه منها أجله، وذلك أنه ضل في الطريق عن المحمل والركب وانفرد بقومه عن العرب، وهي كلها مجاهل لهم، فلم يهتدوا إلى عمران ولا وقفوا على مورد، وساروا على السمت إلى أن نفذوا عند السويس... والأعراب تتخطفهم من أطرافهم إلى أن خلصوا". ومن القاهرة سار الركب باتجاه غدامس، ثم كوكو، فتنبكتو، ونياني.

وقد حظيت محطة القاهرة، في الذهاب والإياب، باهتمام كبير سواء من قبل سلطات المماليك أو كبار مؤرخي الفترة وأصحاب كتب التراجم. فقد كلف الملك الناصر محمد بن قلاوون صاحب تشريفاته المهمندار باستقبال منسا موسى وإنزاله وحاشيته بقصر عند القرافة الكبرى أقطعه إياه. ونوهت المصادر بضخامة الثروة التي جاء بها الرجل، وما أفاض من نعمائه على أهل مصر. فقد جاء معه ب "مائة حمل من التبر، كل حمل ثلاثة قناطير"[25]؛ وهو ما قدره ريموه موني R.Mauny[26] بـ 10.200 إلى 12.750 كلغم من الذهب. وتحدث العمري [27]، عن محطته القاهرية، فقال إنه كان "مدة مقامه بمصرَ، قبل توجهه إلى الحجاز الشريف وبعده، على نمط واحد من العبادة والتوجه إلى الله عزّ وجلَّ كأنه بين يديه لكثرة حضوره، وكان هو ومن معه على مثل هذا مع حسن الزي في الملبس والسكينة والوقار. وكان كريما جواداً كثير الصدقة والبر"، حيث أهدى للملك الناصر هدية عظيمة "يقال إن فيها خمسين ألف دينار"، وقدم لخزينة الدولة المصرية أحمالاً كثيرة من التبر غير هدية الملك، وأفاض "بمصر فيض الإحسان، لم يدع أميراً مُقرباً ولا رب وظيفة سلطانية حتى وصله بجملة من الذهب"؛ مثل مستقبِله الْمِهْمَنْدَار، ووالي مصر والقرافة علي بن أمير حاجب الذي وصله بخمسمائة مثقال، ودليل الركب السلطاني من مصر إلى الحجاز مهنا بن عبد الباقي العجرمي الذي أعطاه منسا موسى مائتي مثقال، "وبالغ مهنا في وصف ما رآه منه من الكرم وسعة النفس ورفاهية الحال" حسب تعبير

العمري. "وكسب أهلُ مصر عليه وعلى أصحابه في البيع والشراء، والأخذ والعطاء ما لا يحصر، وبذلوا الذهب حتى أهانوا في مصر قَدْرَهُ، وأَرْخَصُوا سعره" على حدِّ قول العمري [28]. وقال العجرمي إن الملك "أفاض على الحجيج وأهل الحرمين سجال الإحسان...، وتصدق بمالٍ كثيرٍ"، فضلاً عما بذل من عطاءات للقبائل التي مرَّ بها في طريقه من مالي إلى الحجاز.

وبدوره، أجزل الملك الناصر الهدية لضيفه السوداني وأكرم وفادته، "فلما آن أوان الحج بعث إليه دراهم كثيرة وجمالاً وهجناً خاصة كاملات الأكوار والعُدَدِ لمراكبه، وهجناً أتباعاً لأصحابه ومن حضر معه، وأزواداً جمةً، وركز له العليق في الطريق، ورسم لأمراء الركب بإكرامه واحترامه..."[29].

وقد تحدث العمري [30] عما أعَدَّ هذا الملك من مال لأداء فريضة الحج، وما كان عليه من كرم وجود اضطر معه للاستدانة، فقال: "... وكان كريماً جواداً كثير الصدقة والبرِّ، خرج من بلده بمائة وسق جملٍ من الذهب أنفقها في حجته على القبائل بطريقه من بلاده إلى مصر، ثم بمصر، ثم من مصر إلى الحجاز الشريف، في التوجه والعودة، حتى احتاج إلى القرض، فاستدان على ذمته من التجار بمكاسب كثيرةٍ جعلها لهم بحيث حصل لهم في ثلاثمائة دينار سبع مائة دينار ربحاً، ثم بعثها إليهم بالراجح".

وأكد ابن خلدون[31] تلك المعلومات، وقال إن ما أعد الملك لنفقته من قناطير مقنطرة قد "نفدت كلها وأعجزته النفقة فاقترض من أعيان التجار، وكان في صحبته منهم بنو الكويك فاقرضوه خمسين ألف دينار، وابتاع منهم القصر الذي أقطعه السلطان وأمضى له ذلك". وهذا كله، ما جعل أهل مصر يعيشون على ذكرى حَجّة هذا السلطان الإفريقي لسنوات عديدة، وجعل صداها يتردد في كتابات مؤرخي القرن الثامن الهجري ومن قفوهم.

غير أن بَذْلَ الرجل وسعة إنفاقه لم يكونا وحدهما المسئولَيْنِ عن نفاد الأموال الضخمة التي أعد لرحلته، وإنما لعب غش تجار مصر له وتحايلهم عليه –وعلى أصحابه– دوراً في نفاد أمواله والاضطرار لبيع القصر الذي أهداه الملك الناصر والاستدانة من التجار لتغطية نفقات العودة من مصر إلى مالي.

وقد انتبه العمري [32] إلى ذلك السلوك وإلى ما خلقه من انطباع سيء لدى الحجاج الماليين في روايته لما حَدَّثَهُ به "خلق من تجار مصر والقاهرة عما حصل لهم من المكاسب والربح عليهم [33]، فإن الرجل منهم كان يشتري القميصَ أو الثوبَ أو الإزارَ وغيرَ ذلك بخمسة دنانير وهو لا يساوي ديناراً واحداً، وكانوا في غاية سلامة الصَّدْرِ والطمأنينةِ يُجَوَّزُ عليهم مهما جُوِّزَ عليهم، ويأخذون كلَّ قول يقال لهم بالقبول والصدق. ثم ساءت ظنونهم بأهل مصرَ غاية الإساءة لما ظهر لهم من غشهم لهم في كل قول، وفي تزاحمهم المفرط عليهم في أثمان ما يباع عليهم من الأطعمة والسلع حتى لو رأوا اليوم أكبرَ أئمة العلم والدين، وقال لهم إنه مصريٌّ امتهنوه، وأساءوا به الظنَّ لما رأوا من سوء معاملتهم لهم".

ومهما يكن من أمر، فقد كان هم الرجل الأساس هو أداء مناسكه على الوجه الأكمل ولم يقبل أن يشغله عنه شاغل. فقد رغب طويلا في القاهرة عن الاجتماع بالسلطان الناصر محمد بن قلاوون، رغم إلحاح المهمندار، وقال: "أنا جئت لأحجَّ لا لشيءٍ آخر، وما أريد أن أخلط حجي بغيره"[34]. وهذا ما يفسر –جزئياً –شحَّ المعلومات عن محطته الحجازية التي انشغل فيها بأداء مناسكه، ولم يقم بما يسترعي انتباه المؤرخين الذين اهتموا كثيراً بمحطته القاهرية... فلم يصلنا من أخبار مقامه في الديار المقدسة سوى أداء مناسك الحج والعمرة، وزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، وما أنفق من أموال على الحجيج وأهل الحجاز، وما قام به من اتصالات وبذل من مال لاستمالة بعض العلماء وأصحاب الخبرة والجاه لإقناعهم بمرافقته في رحلة العودة إلى بلاده. وهذا ما يقودنا إلى الحديث عن أثر هذه الرحلة في تواصل أهل السودان الغربي مع المسلمين في مشرق دار الإسلام ومغربها.

2-رحلة منسا موسى ودورها في التواصل الثقافي:

عرفت علاقات السودان الغربي مع المشرق والمغرب العربيين تطوراً ملحوظا إثر حجة ملك مالي منسا موسى التي زادت من تألق هذا البلد ونقلت إشعاعه إلى أبعد من حدوده بكثير. وكان لتلك الرحلة أثرها الإيجابي على عملية التواصل بين المنطقتين على الأصعدة السياسية والاقتصادية والثقافية. وسيقتصر حديثنا هنا على مظاهر التواصل الثقافي الذي تم خلال هذه الرحلة، وما كان له من دور في رفد

المنطقة ببعض العوامل التي ساهمت فيما ستعرفه لاحقا من نهضة عمرانية وثقافية متميزة جنت تنبكتو ونياني وغاوه أفضل ثمارها.

وبحكم طبيعة الرحلة الإيمانية ونزعة صاحبها الدينية القوية، فقد تأثر بما شاهد في الحرمين الشريفين من أحوال ربانية عزَّ عليه فراقها حتى عزا العمري [35] لابن أمير حاجب (ت. 739هـ/1339م) قوله إن منسا موسى كان ينوى عند العودة من الحج إلى بلاده أن "يقرر لابنه الملك، ويتركه له بالكُلِّيَّة"، ويعود إلى مكة لجوار بيت الله الحرام.

وقد استغل الملك موسم الحج لاقتناء عدد من الكتب وربط الصلة ببعض رجال العلم، وأقنعهم بمرافقته إلى بلاد السودان حيث لعبوا دوراً مشهوداً فيما عرفته المنطقة من تطور عمراني وثقافي. ونخص بالذكر من هؤلاء:

-أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن الطويجن[36] الساحلي الأندلسي الغرناطي، الشاعر وصاحب الخبرة المعمارية الكبيرة الذي لقيه منسا موسى في موسم الحج وحرص على اصطحابه معه إلى مالي لِيُشَيِّدَ بها مشاريع عمرانية شعر بالحاجة إليها بعد ما شاهد من معمار القاهرة والحرمين الشريفين. وكان الطويجن من أحظي الناس عند الملك، وبنى له المسجد الجامع في غاوه، والجامع الكبير والقصر الملكي في تنبكتو، وقاعة مجلس الملك الشهيرة في العاصمة نياني التي أودعها الطويجن خلاصة خبرته الفنية وتجربته المهنية؛ "فجاءت من أتقن المباني، ووقعت من السلطان موقع الاستغراب لفقدان صنعة البناء بأرضهم، ووصله باثني عشر ألفا من مثاقيل التبر مبثوثة عليها، إلى ما كان له من الأثرة والميل إليه والصلات السنية"، حسب تعبير ابن خلدون [37].

-عبد الرحمن التميمي الذي قال السعدي [38] إنه جاء مع السلطان منسا موسى من أرض الحجاز حين رجع من الحج، فسكن تنبكتو، ولاحظ تفوق علمائها عليه في الفقه؛ فرحل إلى فاس وتفقه فيها، ثم رجع إلى تنبكتو فتوطن فيها. وأصبح على درجة من العلم جعلت الشيخ الرباني سيدي يحيي التادلي (ت. 866هـ/1461م) يقول لطلبة جامع سنكري إذا جاءوه لأخذ العلم: "يا أهل سنكري كفاكم سيدي عبد الرحمن التميمي". ومع أننا لا نتوفر على تاريخ وفاة التميمي الذي جاء إلى المنطقة سنة 725هـ، فربما كان من عناه التادلي هنا -في رواية السعدي التي نقلها عنه كذلك صاحب فتح الشكور (ص. 313) -هو حفيد التميمي قاضي تنبكتو حبيب بن محمد الصالح بن عبد الرحمن التميمي (ت. 904هـ) الذي أخذ عنه عالم التكرور والقاضي من بعده محمود بن عمر بن محمد أقيت (ت. 955هـ).

ويبدو من رواية تاريخ الفتاش [39] أن اهتمام منسا موسى في الحجاز، لم ينصب فقط على اقتناء الكتب وربط الصلة ببعض أهل العلم، وإنما سعى كذلك إلى جلب بعض الأشراف القرشيين إلى بلاده للتبرك بهم[40] وإضفاء مزيد من الشرعية عليه وعلى سلطته. وقد قيل إنه قد تقدم بذلك الطلب إلى شيخ مكة [41] الذي رفضه رفضاً باتا. وبعد أن اشتد إلحاح الملك قال له الشيخ: "لا أفعل ولا آمر ولا أنهى، ومن شاء فليتبعك، فَأَمْرُهُ بيده، فأنا بريء". فأمر ملك مالي "مُناديا في الجوامع: من أراد ألف مثقال من الذهب فليتبعني إلى أرضي، فله ألف حاضر. وجمع عليه أربعة رجال من قريش، قيل إنهم كانوا من موالي قريش وليسوا من أنفس قريش، وأعطاهم أربعة آلاف، كل واحد منهم ألف، وتبعوه بأهليهم راحلين إلى بلده".

وإذا صحت هذه الرواية، فإنه ينبغي النظر إليها من زاوية نزعة التعلق بآل البيت وادعاء الانتساب إليهم الحاضرة بقوة في بلاد السودان منذ منتصف القرن السادس الهجري - على الأقل -حيث ادعى حكام التكرور النسب العلوي [42]، وتجدد هذا الادعاء مع أكثر من أصحاب سلطة في المنطقة أو طامحين إليها. كما قد تكون رجع صدى، في الطرف الآخر من الصحراء، لإيديولوجية الشرف التي ترسخت بالمغرب الأقصى منذ العهد المريني لحل أزمة الشرعية السياسية في ذلك البلد [43].

وكانت معلوماتنا عن صلات الركب السوداني الثقافية في مصر أكثر دقة وثراء حيث وجدت متسعاً من الوقت في الذهاب، واستكملت في رحلة الإياب. ففي بداية وجوده، بحث منسا موسى عن فقهاء المالكية في مصر للاسترشاد بنصائحهم والاستفادة من علمهم، لاسيما أن السودانيين -عموماً -قد عرف عنهم تعلقهم بمذهب الإمام مالك، رضي الله عنه، وتشوفهم لتحصيل علوم الشريعة على أساسه، وأن الرجل كان له حظ من الثقافة العربية الإسلامية يمكنه من محاورة هؤلاء العلماء. فهو وإن كان لا يكلم المهمندار وغيره من أمراء

المماليك إلا بترجمان "مع إجادته للتكلم باللسان العربي"[44]؛ فإنه كان يتحدث مباشرة وبدون ترجمان مع كل من أبي إسحاق الساحلي والمعمر أبي عبد الله بن خديجة حسب قول ابن خلدون [45]. واكتفت مصادرنا بالقول إنه عقد لقاءات مع هؤلاء الفقهاء دون تفصيل بشأنهم، وأومأت إلى أنه قد ارتبط بعلاقات خاصة مع بعضهم مثل الفقيه المالكي البجائي الأصل: القاضي شرف الدين عيسى الزواوي [46] الذي يبدو أنه جالس منسا موسى كثيراً في قصره بالقرافة [47]. وحدثنا أحمد بابا التنبكتي[48]، نقلا عن ابن مرزوق الخطيب (710-781هـ)، عن تأليف شيخه القاضي ومدرس المالكية بمصر: محمد بن أحمد بن ثعلب المصري المعروف بابن كشتغدي[49]، شرحا لمختصر أبي الحسن الطليطلي[50] بطلب من سلطان مالي منسا موسى.

وجملة القول إن الرجل استغل رحلته إلى الحج عموما، ومقامه بالقاهرة على وجه الخصوص، للتعرف على الفقهاء المالكيين والاستفادة منهم، والسعي لاستصحاب بعضهم إلى بلاده، واقتناء الكتب. فقد ذكر العمري أن منسا موسى "جلب إلى بلاده الفقهاء من مذهب مالك رضي الله عنه"، في حين قال المقريزي[51] إنه قد "اشترى عدة كتب من فقه المالكية" خلال إقامته بالقاهرة.

وفضلا عما كان للعلماء والكتب من دور في التواصل الثقافي بين المنطقتين، فقد كان للاحتكاك الحضاري أثره البالغ على هذا الصعيد، أيضاً، حيث تؤكد المصادر عمق تأثر منسا موسى بالمناخ الروحي الذي عاشه في الحرمين الشريفين خلال موسم الحج أو في لقاءاته بالعلماء في القاهرة، فأولى عناية كبيرة – بعد عودته من الحج – لتشييد المدارس، وابتعاث الطلاب للدراسة في حواضر المغرب الثقافية[52]، وبناء المساجد حتى قال السعدي[53] إن "عادته رحمه الله في كل موضع أخذته الجمعة" فيه أن يبتني مسجداً ومحراباً كما فعل في جاوه وتنبكتو وغيرهما.

وكان لذلك كله أثره على واقع الإسلام والثقافة العربية الإسلامية في المنطقة الذي حدثنا ابن فضل الله العمري [54] عن بعض مظاهره، في معرض حديثه عن مملكة مالي وما ورثه الملك سليمان عن أخيه السلطان منسا موسى، فقال إن "بيده ما كان قد جمعه أخوه مما فتحه من بلاد السودان، وأضافه إلى يد الإسلام، وبَنَي به المساجدَ والجوامعَ والمواذنَ، وأقام به الجمع والجماعاتِ والآذان، وجلب إلى بلاده الفقهاء من مذهب الإمام مالك رضي الله عنه، وبقي بها سلطانُ المسلمين، وتفقه في الدين".

وساهم هذا المناخ الديني والثقافي في عملية التراكم المعرفي الذي عرفته المنطقة لاحقاً وما تولد عنه من إشعاع ثقافي شكلت تنبكتو –وجامعتها المتمثلة في معهد مسجد سنكري –مركز إشعاعه الأساس الذي أضاء منطقة السودان الغربي وأحوازها ردحاً طويلاً من الزمن.

وكان حجُّ علماء السودان الغربي أكثرَ اطراداً من حجِّ الملوك والأمراء، وأبلغ أثراً ثقافياً في التواصل مع الساحة العربية الإسلامية. وهذا ما يقودنا إلى الحديث عن حجة العالم المحدِّث صالح الفلاني.

حجة صالح الفلاني وَرَفْدُ الأطراف للمركز

اعتنى العلماء الأفارقة أكثر من غيرهم من بني جلدتهم بأداء فريضة الحجِّ، وكانت رحلة الحج لديهم من أهم قنوات التواصل مع محيطهم العربي الإسلامي، وخصوصا على الصعيد المعرفي. وكانت رحلة صالح الفلاني بالغة الدلالة في هذا الصدد لاسيما أن صاحبها استفاد منها وأفاد، وشمل إشعاعه العلمي الساحة الإسلامية من الهند إلى موريتانيا، مروراً بالحجاز، واليمن، فالشام، وتركيا، ومصر والمغرب... وسنُعرِّفُ بالرجل ورحلته في طلب العلم وأداء مناسك الحج، قبل الحديث عن عطائه العلمي في أرض الحجاز وما منح فيها من إجازات عالية السند لم تكن معروفة في المشرق العربي.

1-صالح الفلاني ورحلته العلمية من فوتا ادجالُّون إلى المدينة المنورة:

ولد العالم المحدث الحافظ صالح بن محمد بن نوح بن عبد الله بن عُمر، العُمري المسوفي الفلاني، في منطقة فوتا ادجالُّون (غينيا كناكري حاليا) سنة 1166هـ/1753م، وتلقى معارفه الأولى فيها، وأخذ بالأساس عن خاله عثمان بن عبد الله الفلاني. ثم ارتحل سنة 1178هـ لطلب العلم وعمره لم يتجاوز اثني عشر عاما، فدخل بلاد "القبلة"، في جنوب غربي موريتانيا، حيث أخذ عن العالم اللغوي والمتكلم الأشعري الشهير المختار بن بونه الجكني (ت. 1220هـ/1805م)، قبل أن يشد الرحال إلى الشرق الموريتاني ويلازم على مدى ست سنوات [55] الشيخ محمد بن

سِنَّة الفلاني الولاتي (1042–1186هـ/1632–1772م)[56] الذي انتفع به أكثر من غيره من أشياخه الكثر واعتبره أجلَّهم على الإطلاق، وأحفظهم، وأنصحهم للطلبة [57]. ثم ارتحل إلى تنبكتو ولازم فيها نحو العام الشيخ محمد الزين، وانتقل منها إلى وادي درعة حيث مكث في الزاوية الناصرية بتمكروت سنة، وغادرها إلى مراكش التي أمضى بها ستة أشهر وأجازه قاضيها عبد العزيز بن حمزة المطاعي (ت. 1205هـ/1790م). وتوجه من المغرب الأقصى إلى تونس وأخذ عن علمائها مثل الغرياني[58]، والكواشي[59]، والسوسي[60] وغيرهم. وزار طرابلس الغرب وقال إنه لقي فيها التاودي بن سودة (ت. 1209هـ/1795م)[61] في مآبه من الحجِّ، فأخذ عنه وأجازه إجازة عامة؛ وإن شكك عبد الحفيظ الفاسي (ت. 1383هـ/1963م) [62] في أن يكون هذا اللقاء قد تم في التاريخ الذي توجه فيه الفلاني إلى الحج. أما في مصر، فقد أقام ثلاثة أشهر ملازماً علماءها كأبي الحسن الصعيدي[63] ومحمد مرتضى الزبيدي (ت. 1212هـ/1797م)، ومحمد المصيلحي (ت. 1201هـ/1786م)، قبل أن يشد الرحال إلى الديار المقدسة فيؤدي فريضة الحج سنة 1187هـ/1773م، ويزور قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، ويعيش في جواره بالمدينة المنورة حتى وفاته سنة 1218هـ/1803م. وقد أمضى في الحجاز أكثر من نصف عمره القصير، وأخذ عن عدد من علمائها وزوارها مثل الأمير إبراهيم بن محمد بن إسماعيل الصنعاني (ت.1213هـ/1799م)، ومصطفي الرحمتي الدمشقي المدني (ت.1205هـ/1790م)، وعبد الله المرغني الطائفي، ومحمد بن محمد بن عبد الله المغربي الزواوي (ت. 1201هـ/1786م)، والشيخ الدردير (ت.1201هـ/ 1786م)، ومحمد بن عبد الكريم السمان (ت. 1189هـ/1775م)، وإبراهيم الرئيس بن محمد الزمزمي المكي، وعبد الملك بن عبد المنعم القلعي (ت. 1229هـ/1814م)، وسليمان بن محمد الدراودي، وأبو الحسن ابن محمد صادق السندي المدني، ومحمد بن عبد السلام الناصري الدرعي (ت. 1239هـ/1822م)، والعالم الجليل محمد سعيد سفر (ت. 1192هـ/1778م)، وزوجه أم الزين المدنية، وغيرهم. وقال الفلاني إن محمد سعيد سفر هو أجلُّ شيوخه بالمدينة المنورة، ولازمه ست سنين. وقد حلاه في ثبته الكبير ب "جامع أشتات علوم الخبر، وبدر خفايا لطائف علم الأثر، محيي رسوم الرواية بعدما عفت آثارها، ومُشيِّد مبانيها بعدما انهدَّ منارها، خاتمة الحفاظ الأعلام، جهبذ أهل الرواية والإسناد"[64]. وأختلف في أخذه عن الحافظين محمد بن حبيب الله المجيدري الشنجيطي (1204هـ/ 1789م) والجيلالي بن المختار السباعي (ت. 1233هـ/1817م) الذيْن نقل الكتاني [65] من خط صالح الفلاني ما يؤكد إعجابه بهما حين قال: "ورد علينا من المغرب حافظان: محمد المجيدري من آل بارك الله والسباعي، أحدهما يبقى ما في حفظه ستة أشهر، والآخر يبقى ما في حفظه عاماً".

وبذا يكون الرجل قد أعمل الرحلة مبكراً في طلب العلم وكرَّس وقته وجهده لتحصيله، فانتقل في ريعان شبابه من هضاب فوتا ادجلُّون، إلى موريتانيا، وتنقل في أرجائها حتى ظفر بمبتغاه من الإجازات وهو ما يزال في مقتبل العمر؛ ثم شد الرحال إلى المغرب وتونس ومصر والحجاز، فأضاف إجازات علمائها إلى إجازاته الشنجيطية العالية السند.

2-صالح الفلاني منهجه ومكانته العلمية، وإجازاته العالية السند:

أنهى صالح الفلاني رحلته العلمية بأرض الحجاز حيث أدَّى مناسكه، وحطّ عصى الترحال بالمدينة المنورة التي طاب له المقام فيها ابتداء من 1187هـ/1773م. وخلال هذا المقام الممتد زهاء ثلث قرن من الزمن، اشتد إقبال الناس على الفلاني وقام بنشاط معرفي متميز. وإذا كان المقام يضيق عن تتبع مختلف أوجه عطاء الرجل المعرفي، فإننا سنكتفي بإعطاء لمحة عامة عن مكانته العلمية وأهم آثاره، وإجازاته العالية السند، وأمثلة ممن أخذوا عنه.

–مكانته العلمية وآثاره: يعتبر صالح الفلاني وعاء من أوعية العلم الذي كرَّس حياته له، فتلقاه من أفواه الرجال، وبالمطالعة والدراسة والتدريس، والجِدِّ والمثابرة، والورع والتواضع العلمي، حتى تبوأ مكانة بارزة بين علماء المدينة المنورة في ملتقى القرنين 12 و13 الهجريين، وأصبح قبلة لطالبي العلم، والمستجيزين من أهله. وكان مالكي المذهب، متبحراً في الحديث والتفسير، نابذاً الجمود والتخندق المذهبي، حريصا على ألا يقلد في دينه؛ فأخذ يستنبط الأحكام من أدلتها، ويحرر ويؤلف، ويدعو للتجديد والوقوف عند الدليل. وعرف عنه كرهه التقليد ونفوره منه حيث قال في مقدمة كتاب: إيقاظ همم أولي الأبصار للاقتداء بسيد المهاجرين والأنصار ما نصه: "فأقول: كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ متظاهران على الحثِّ على العمل بالكتاب والسنة، وقضايا الصحابة والتابعين كاشفة عن ذلك كلّ دُجَنَّةٍ، وكلام الأئمة الأربعة وغيرهم مصرح به وكاشف عن قلوب مُتبعيهم

الأكِنَّة، بل في كلامهم التصريح بتحريم تقليدهم بعد ورود نص يخالفهم من كتاب أو سنة، وأنَّ تقليد المتعصبين بعد ذلك ضلال وجِنَّة، وأنه ليس لغير العاميِّ تقليدٌ بغير برهان وحجة"[66].

وأكد هذا الرأي في أكثر من مكان من هذا الكتاب، واعتبر التقليد تعطيلاً للعقل ولضرورة التأمل؛ وانتقد مسلك فقهاء عصره في عدم الاعتماد على الكتاب والسنة في استنباط الأحكام من خلال تعليقه على قول أبي السمح [67]: "يأتي على الناس زمان، يسمِّن الرجل راحلته، حتى يقعد شحماً، ثم يسير عليها في الأمصار، حتى تسير نقضاً يلتمس من يُفْتِيهِ بسّنَّة قد عمل بها، فلا يجد إلا من يفتيه بالظن"، فقال:

"قلت: ولقد صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكل ذلك قد وقع لأن اسم الفقيه عند السلف... إنما يقع على من علم الكتاب والسنة وآثار الصحابة ومن بعدهم من علماء الأمة، وأما من اشتغل بآراء الرجال واتخذه ديناً ومذهباً ونبذ كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وقضايا الصحابة والتابعين وآثارهم من ورائه، فلا يطلق عليه اسم الفقيه بل هو باسم الهوى والعصبية أولى وأحرى. ولقد شاهدنا في زماننا هذا مما قاله أبو السمح؛ فلقد طُفْتُ من أقصى المغرب ومن أقصى السودان إلى الحرمين الشريفين، فلم ألقَ أحداً يسأل عن نازلة فيرجع إلى كتاب رب العالمين وسنة سيد المرسلين وآثار الصحابة والتابعين إلا ثلاثة رجال، وكل واحد منهم مقموع محسودٌ يُبغضه جميع من في بلده من المتفقهين وغالب من فيه من العوام والمتسمين باسم الصالحين، وموجب العداوة والحسد تمسّكهم بالكتاب وسنة إمام المتقين صلى الله عليه وسلم، ورفضهم كلام الطائفة العصبية والمقلدين"[68].

وأنكر على معاصريه من العلماء المنحازين إلى جانب السلطة العثمانية الذين أصبح "القضاء والفتوى عندهم بلبس الكوربان الغراء"، وشَغَلُوا أنفسهم بالاستكتاب عن التدبر والاعتبار؛ "فألسنتهم تروي العلم وقلوبهم قد خلت من الفهم، غاية معرفة أحدهم، معرفة الكتب الغريبة والاسم الغريب، والحديث المنكر، وتجده قد جهل ما لا يسع أحداً جهله من علم صلاته وحجه وزكاته..."[69].

ورَغِبَ عن منهج المختصرات الفقهية وتدريسها، واعتبر أن "الاشتغال بالكتب المختصرات والمعقدات ليس يجدي نفعاً، وإنما هو جهل مركب". وعارض التزام متأخرى أهل كل مذهب من المذاهب الأربعة بمتن فقهي خاص بهم، لما ينجر عن ذلك من حمية وتعصب؛ فقال: "فما بالك برأي أهل القرن الثالث عشر الهجري الذين جعلوا دينهم الحمية والعصبية، وانحصروا على طوائف: فطائفة خليليون [70]، ادعوا أن ما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم محصور في مختصر خليل، وأنزلوه منزلة كتاب الله العزيز الجليل، فصاروا يتبعون مفهومه ومنطوقه، كل دقيق فيه وجليل؛ وطائفة كنزيون أو دريون[71] ادعوا أن ما في هذين هو العلم، فالعمدة على ما في الأسعدية والخيرية [72]. وكان يطغي عليهم اعتقادهم أن العمل بما في هذه المصنفات مقدم على ما نزل به جبريل على خير البرية عليه الصلوات والتسليمات وعلى من تبعهم. وطائفة منهم منهجيون أو منهاجيون[73]، فيبحثون عن منطوقها ومفهومها، وبما فيها يتعبدون، فإنا لله وإنا له راجعون"[74].

وأكد نبذه للتقليد وتشبثه بالدليل الذي نبذه متأخرو المذاهب، فقال: "... أن تتأمل مذهب مالك، فترى كتب علمائهم المتقدمين قد مُلئت بالأدلة، وحُشيّت بذمِّ المقلدين، كالمبسوط للقاضي إسماعيل، والمجموعة لابن عبدوس، والتمهيد لابن عبد البر، والطراز لسند بن عنان؛ وقد نبذها المتأخرون وراء ظهورهم، وأقبلوا كل الإقبال على ما ابتدعه المتأخرون من حذف الدليل من مختصراتهم، وأولعوا بالتقليد بلا دليل، لاعتقادهم أن الاشتغال به عناء وتطويل، إنا لله وإنا إليه راجعون"[75].

وعُرِفَ الفلاني، في مقارباته المنهجية، بالأمانة والدقة في العزو كما يتجلى من حديثه عن منهجه في "إيقاظ الهمم" حيث يقول: "واعلم أيها الناظر فيما جمعناه أن جميع ما ذكرناه من الآثار، من أول المقدمة إلى آخرها، كلها مروي بأسانيد جياد حذفناها اختصاراً، وجلها لحافظ المغرب أبي عمرو بن عبد البر من كتاب العلم، والتمهيد، والاستذكار، والاستيعاب كلها له، وما عداه فمن كلام حافظ المشرق أبي بكر البيهقي، وقليل نقلته من سنده عن علامة المجتهدين محمد بن إدريس الشافعي، والله الموفق للصواب"[76].

وقد أثنى عليه كبار العلماء ووصفوه بالعلم والعمل والاجتهاد، فقد وصفه تلميذه العالم المحقق، وشيخ الجماعة بفاس في عهده: عبد الرحمن بن أحمد الشنجيطي (ت. 1224هـ/1809م) ب "الفقيه المحدث النحوي البياني العالم بجميع فنون المعقول والمنقول"[77]، ونوَّه تلميذه الشيخ محمد صالح الرَّيّس الزمزمي المكي (ت. 1240هـ/1824م) برسوخه العلمي وعلو أسانيده [78]، وقال عنه محدث الشام الوجيه الكزبري (1221هـ/1806م) إنه "الإمام المشهور بالإسناد العالي ذو الذهن الوقاد المتلالي". وحلاّه الشيخ عابد السندي المكي (ت. 1275هـ/1840م) بـ "الإمام الذي لا يجارى، والفهامة الذي لا يماري، ملحق الأصاغر بالأكابر"، واعتبره البيطار الحنبلي (ت. 1335هـ/ 1916م): "عالم المدينة المنورة، وفاضل البقعة الحجازية، وعمدة الأفراد والأعيان، ونخبة الأمجاد الذين يشار إليهم بالبنان، الجامع بين العلم والعمل فوق ما يتعلق به الأمل"، وقال عالم الحديث الشمس القاوقجي (ت. 1305هـ/1888م) إنه كاد أن يكون مجتهداً، في حين جزم صاحب "الدين الخالص"[79] ببلوغه رتبة الاجتهاد. أما صاحب "عون المعبود على سنن أبي داود"[80]، فقد عَدَّه "من المجددين على رأس المائة الثالثة عشر".

وعقد له عبد الحي الكتاني ترجمة حافلة قال في مستهلها: "هو الإمام المحدث الحافظ المسند الأصولي الأثري فخر المالكية..."[81]، بل اعتبره "مسند الحجاز والمالكية في أول القرن المنصرم [13هـ] [82]"، وأحال إليه 73 مرة.

وقد ترك صالح الفلاني آثارًا تعكس اهتماماته المعرفية ومنهجه الأصولي الذي جعل البعض [83] يتحدث عن جهوده السلفية وعن تأسيسه "مدرسة إصلاحية في المدينة المنورة مع كوكبة مهمة من أساتذته وتلاميذه". ومن أهم تلك الآثار:

– إيقاظ همم أولى الأبصار للاقتداء بسيد المهاجرين والأنصار وتحذيرهم عن الابتداع الشائع في القرى والأمصار من تقليد المذاهب مع الحمية والعصبية بين فقهاء الأعصار، وهو أهم تلك المصنفات، إذ عرض فيه منهجه في استنباط الأحكام من الكتاب والسنة، ومن آراء السلف الصالح، ومدلول التقليد عند العلماء وغير ذلك.

– جمع الأحاديث القدسية.

– تحفة الأكياس بأجوبة الإمام خير الدين إلياس، مفتي المدينة.

– الأجوبة المصرية عما استعجم من الأسئلة الواردة على حروف المعجم.

– الثبت الكبير المسمى الثمار اليانع في رفع طرق المسلسلات والمسانيد والأجزاء والجوامع، وذكر طرق التصوف وما لها من التوابع أو إحياء مراسم الأسانيد العالية بعد اندراسها، وتوثيق عُرى المسلسلات السامية بعد انفصامها، وإيضاح الطرق الهادية بعد خفاء أعلامها؛ وقد تحدث في هذا الكتاب عن مشايخه في السودان، ومراكش، وفاس، وتونس، ومصر، والحجاز، واليمن، والشام، وما سمعه على كل واحد منهم، وعن فضائل علوِّ الإسناد، واشتمل على أسانيد الكتب الستة والموطأ فقط، وخصّ طرق الصوفية ووصايا الأنبياء والعلماء والحكماء بملحق.

– الثبت الصغير المسمى قطف الثمر في رفع أسانيد المصنفات في الفنون والأثر [84] الذي اختصر به الثمار اليانع، وهو ثبت حافل قيِّم يشتمل على أسانيد عالية جعلت الكتاني [85] يقول إنه "مهم جداً جامع لأسانيد وكتب أهل المشرق والمغرب".

وكان أكثر ما امتاز به الفلاني هو علو الإسناد [86].

– الفلاني وإحياء إجازات الحديث العالية السند في الحجاز:

يعتبر الإسناد من خصائص هذه الأمة، وقد اعتز المسلمون بعلوه ورغبوا فيه منذ عهد الصحابة والتابعين. ولا يختص الإسناد بالحديث النبوي الشريف وكتبه، وإنما يشمل مختلف كتب المعرفة في الثقافة العربية الإسلامية. ولذا، اهتم علماء المسلمين بوضع أثبات وفهارس لأشياخهم ومروياتهم، يتتبعون فيها حلقات السند، ويضبطون تواريخ الوفيات، ويعرِّفون بالمصنفات ومجالات الاهتمام المعرفي.

وكان أهم ما امتاز به نشاط صالح الفلاني المعرفي في مهجره، هو إحياء إجازات الحديث في الحجاز الذي كثر الآخذون عنه من أهله، ومن الوافدين عليه من أهل الهند، والشام، وتركيا، ومصر، والمغرب، وموريتانيا وغيرها من أصقاع العالم الإسلامي. وبذلك، يمكن القول إن الفلاني قد

أحدث نقلة نوعية في علاقة أهل السودان الغربي الفكرية بالمشرق العربي، حيث لم يعودوا مجرد متلقين وطلاب زاد معرفي، بل أصبحوا –كغيرهم –أصحاب بذل وعطاء علمي.

فقد نشر الفلاني بالمشرق إجازات عالية السند كان قد تلقاها من شيخه ابن سنّة الفلاني، عن مولاي محمد الشريف الولاتي الشنجيطي (ت. 1101هـ/1689م) [87] الآخذ لها عن عدد من محدثي وفقهاء مصر وغيرها من بلاد المشرق خلال رحلات حجه وحج والده. وكان هذا السند أعلى الأسانيد المعروفة في المنطقة حينها وأقلها شيوعاً، مما زاد من إقبال الناس على الرجل وطلب إجازته، واستجازة الآخذين عنه.

وأعلى الأسانيد التي نشرها صالح الفلاني هي روايته للموطأ – برواية يحيي بن يحيي الليثي (ت.234هـ/849م) – عن شيخه "محمد بن سنة عالياً، عن مولاي الشريف محمد، عن محمد بن خليل عرف بابن أركماش الحنفي، عن الحافظ بن حجر العسقلاني، عن محمد بن عبد اللطيف بن الكويك، عن الحافظ الذهبي، عن عبد الله بن هارون بسنده"[88]... كما امتازت روايته لصحيح البخاري بعلو سندها، إذ يرويه عن شيخه "محمد بن سنة، عن مولاي الشريف إجازة، عن محمد بن محمد بن أركماش اليشبكي الظاهري الفقيه الشهير بالجبقاني، عن الحافظ بن حجر" بسنده إلى البخاري[89].

وتجدر الإشارة إلى أن روايات الفلاني عن ابن سنة عن الشريف الولاتي، أعلاها محمد بن أركماش (توفي بعد 960هـ/1552م) تلميذ ابن حجر (ت. 852هـ/1449م)، وأدناها على القاري (1014هـ/1606م) وعلى الأجهوري (1066هـ/1655م) وطبقتهما من المشارقة والمغاربة.

وقد طعن المحدثان المغاربيان عبد الحفيظ الفاسي (ت. 1383هـ/1963م)، وأحمد بن الصديق الغماري (ت. 1380هـ/1960م)، في رواية صالح الفلاني عن شيخه ابن سنة، بل شككا في وجود ابن سنة نفسه ووجود شيخه الولاتي.

فقد أشرنا في حديثنا عن أخذ الفلاني عن التاودي بن سودة إلى تشكيك الفاسي في لقاء الرجلين، بل في سند الفلاني عموما الذي خصص ست صفحات من معجمه لنقده وتمحيصه [90]. وقد أجمل الفاسي مآخذه على رواية الفلاني –في بداية حديثه عنها –بقوله: "ولصالح الفلاني هذا رواية واسعة لولا ما شانها من الروايات التي أغرب بها على أهل المشرق، وعند فحصها تبيَّن لنا أنها مزيفة كروايته عن الشيخ التاودي ابن سودة، وكروايته عن المسمى محمد بن سنة عن المسمى محمد بن عبد الله الولاتي المدعو بمولاي الشريف..."[91]. وتتبع الفاسي كل واحدة من تلك النقاط بالبحث والمحاجة المنطقية كحديثة عن رواية الولاتي عن عدة طبقات من أهل المشرق والمغرب أعلاها ابن أركماش وشيخه ابن حجر، وأدناها علي القاري والأجهوري من جهة، والعارف الفاسي والمقري وابن عاشر وطبقتهم وطبقة تلامذتهم من جهة أخرى؛ وصعوبة تحقق ذلك زمنيا، فضلا عن تهافت رواية الفلاني لتاريخ ميلاد الولاتي... واعتبر أن رواية صالح الفلاني ورواية ابن سنة عن الولاتي، عن أكثر من تسعمائة شيخ من أهل المشرق والمغرب؛ يصبان "في قالب واحد ليغرب بذلك على أهل المشرق بانفراده بالرواية عن ابن سنة عن الولاتي المعمرين حتى صار بذلك مسند عصره وراويته". ورغم اعترافه بأن "صالح الفلاني لم ينفرد بالرواية عن ابن سنة عن الولاتي، بل روى عنه كثيرون ورفعوا أسانيدهم بواسطتهما من غير طريقه"، كرواية الوناني، والأهدل، ومحمد العطوشي، وبعض الدمشقيين عن الشيخ عبد الرحمن الكزبري عن ابن سنة؛ فإن الفاسي يعتبر "أن كل من روى عن ابن سنة أو عن الولاتي من غير طريق صالح الفلاني، إنما اعتمد في ذلك عليه"[92]. ويخلص إلى أن رواية الفلاني عن شيوخ الولاتي مزورة ومنقولة عن مصادر أخرى لم يطالعها الولاتي نفسه بدليل أنه ذكر أولئك الشيوخ بترتيبهم وأوصافهم وحُلاهم كما ذكرهم غيره من أصحاب الفهارس.

أما اللقاء مع ابن سودة في طرابلس حين مآبه من الحج والأخذ عنه، فهي في نظر الفاسي "الطامة الكبرى والفرية الملعونة التي هدَّت مجد [الفلاني] وأبانت كذبه بصراحة لم يبق معها أدنى ارتياب، فقد كذَّب نفسه بنفسه" لأن ابن سودة دخل مصر راجعاً من الحج في جمادى الآخرة عام 1182هـ في وقت لم يخرج فيه صالح الفلاني بعد من بلاد السودان برسم الحج. وإذا صحت المعلومات التي تتحدث عن حجة أخرى للتاودي في 1191هـ، فلا يمكن الحديث عن لقياه له لأن وصول الفلاني إلى المدينة كان في 1187هـ.

وسبق للدكتور حماه الله بن السالم [93] أن تتبع مطاعن الفاسي هذه في رواية الفلاني لسنده، وقبول الكتاني بذلك السند واعتماده إياه من خلال ترجمته للولاتي وابن سنة وتلميذهما صالح الفلاني، "وأوغل في تزكية رواياتهم والتأكيد على صحة وجودهم التي شكك فيها الفاسي في معجمه"[94]، وأتي بقائمة طويلة ممن ترجموا لابن سنة عن غير طريق صالح الفلاني. وبعد محاجّة الآراء المشككة في رواية الفلاني، خلص الكتاني إلى القول: "فعلي هذا نكف عن الخوض في ذلك بأزيد مما ذكر، مع كون الفلاني إن ذكر أنه قرأ وسمع على شيخه ابن سنة ما يستغرب من الكتب والمصنفات، فكتابه: "إيقاظ الهمم" ينم عن اطلاع كبير ووقوف على أكثر من تلك الكتب وأغرب، ولا نُحب أن نكون كصاحب الفار في القصة التي ساقها ابن خلدون لأجل ابن بطوطة وغرائبه، فكن على بال من كلامه، والله أعلم بالحقيقة"[95].

وكان نشر معجم الفاسي سنة 1350هـ/1931م وما جاء فيه من نقد "ادعاء صالح الفلاني الرواية عن التاودي بن سودة"، أحد بواعث تأليف الغماري كتابه المسمى: "العتب الإعلاني لمن وثَّق صالحاً الفلاني"[96]، بطلب من شيخه محدث الحرمين عمر بن حمدان المحرسي(ت. 1368هـ/1949م) الذي التمس من الغماري "الدفاع عن صالح الفلاني وإبطال تكذيب الفاسي إياه". وقال الغماري إنه بعد أن قرأ كتاب صالح: "قطف الثمر في رفع أسانيد المصنفات والأثر" ليستخرج منه ما يمكن أن يعتمد عليه في الدفاع عنه، خلص إلى أن الفلاني "كذاب فشار، وأننا بالرواية عنه قد وقعنا في شبكة كذبه وشراك فشره، لاسيما وقد أسندت من طريقه أحاديث في كتب قد طبعت وانتشرت"[97]. وقد اقتصر الأمر في البداية على كتابته ترجمة للفلاني من أربع صفحات تبين رأيه الجديد فيه ضمن كتاب: "مجمع فضلاء البشر من أهل القرن الثالث عشر"، إلى أن لاحظ في حوار مع عبد الرحمن بن زيدان (1365هـ/1946م) ميله إلى توثيق صالح الفلاني واستهجانه تكذيب الفاسي له في معجمه، ودعوته للدفاع عنه. فعنَّ للغماري أن يفرد "بيان حاله في جزء مخصوص يكون أسهل للنشر وأقرب للتناول حتى لا يبقى أهل العلم في جهل بشأنه واغترار من باطله ولاسيما أهل الحديث"[98]. وأدرج في بداية تأليفه تراجم الكتاني لصالح الفلاني وشيخيْه ابن سنة والولاتي، وقال إن عبد الحي الكتاني "قد تعب في غير فائدة، وأطال في غير طائل، وأتى بما حط به من قدره وبرهن به على ضعفه واستسلامه لأغراضه وأهوائه، فإن حبه لأسانيد الكتب العالية هو الذي دفعه لمجابهة الحقيقة الناصعة التي سطرها بيده وصار بعد ذلك يغالط نفسه في المحسوس الملموس الظاهر ظهور الشمس في رابعة النهار على أن ما حذفه ولم يذكره هو أعظم وأطم وأجلى وأوضح في كذب الفلاني..."[99].

وقد استغل الغماري فرصة الطعن في رواية الفلاني للتهجم على الكتاني نفسه والتشكيك فيه هو الآخر باعتباره "ناصر الفلاني والمدافع عنه" والْمُثْبِتَ لصدق روايته، بل وصلت به محاولة دحض حججه التهجم على ابن خلدون واتهامه "بالغباوة والجهل" بسبب استشهاد الكتاني بانتصاره لابن بطوطة؛ فقال:

"وابن بطوطة سلف الفلاني في الكذب الواضح والدعاوى العريضة والفشر الممقوت، ولئن انتصر له ابن خلدون، فإنما أسقط بذلك قدره وأبان عن غباوته وجهله، إذ أكاذيب ابن بطوطة لا يستريب فيها عاقل، وقد أكذبه الأوربيون فيما أخبر به عن الصين.."[100].

وقد تمحورت مآخذ الغماري على الفلاني حول التشكيك في عدد الأساتذة الذين أخذ عنهم، والكم الهائل من المصنفات التي رجع إليها وقرأها قراءة بحث وتحقيق في سنوات معدودة رغم صعوبتها. كما شكك في وجود شيخه ابن سنة، وفي عمره الطويل، وعدد شيوخه، وحجم مكتبته، ومستوى ثقافته العربية الإسلامية، وفي قدرته على إقراء "هذه الكتب العويصة لفظاً ومعنىً في سنِّ الأربعين بعد المائة، وهو سوداني الأصل والدار، مع أن السوداني لا يكاد يفهم الأجرومية وهو في مقتبل العمر وعنفوان الشباب، فكيف بمختصر ابن عرفة في المنطق، ومختصر ابن الحاجب في الأصول..."[101].

ويبدو أن تصوراته الذاتية عن مستوى الثقافة العربية الإسلامية في السودان الغربي خلال القرنين 12 و 13 الهجريين، قد طبعت موقفه من الفلاني وسنده المعرفي. ففي معرض طعنه في عدد شيوخ ابن سنة، تعجَّب الغمَّاري كيف يزيد شيوخه على شيوخ الحافظ ابن حجر بأكثر من ثلاثمائة شيخ وهو في بلاد السودان؟ وعلى شيوخ تلميذه الفلاني الذي

لم يستطع نفي مكانته العلمية الكبيرة، وتطوافه في البلدان لتحصيلها، ونبوغه وذكائه؛ فقال:

"فها هو تلميذه صالح الفلاني، الحافظ الذكي النابغة الراوية الفشار، قد رحل ودخل فيما يزعم بلاد السودان، وشنقيط، والسوس والمغرب الأقصى، والجزائر وتونس، وطرابلس، ومصر، والشام، والحجاز، وأقام بالمدينة المنورة موضع وجود المسلمين من مشرق الشمس إلى مغربها؛ هل استطاع أن يجمع من الأشياخ عشر هذا العدد ولا نصف عشره..."[102].

ويبدو جليا من قراءة مجمل مآخذ الغماري على الفلاني، غلبة طابع الحجاج الانطباعي غير المؤسس معرفياً عليها مع شخص توفي قبل ولادة المحاج بفترة طويلة من الزمن، وصدورها عن ذات مركزية لا تُقِرُّ بالفضل لغيرها، وتنظر إلى مسلمي جنوب الصحراء نظرة دونية، وافتقارها إلى معطيات موضوعية تعزز رأي صاحبها، فضلاً عن اتخاذه نقد الفلاني قنطرة للنيل من مُسندين معاصرين له من أمثال الكتاني...

إن النقد ضروري ومفيد لتطور المعرفة البشرية، لكن شريطة ممارسته وفق آليات وقواعد منهجية سليمة تعصمه من الأهواء والمنزلقات الذاتية البعيدة عن المقاربات الموضوعية والاستدلالات المنطقية، وتوجهه نحو الحقيقة العلمية القائمة على "معرفة الأشياء بأسبابها" وماهيتها. والأسانيد هي جزء من الكتابة المناقبية التي لها آلياتها وأساليبها ومنطقها الداخلي وسياقات إنتاجها التاريخي التي ينبغي أخذها بعين الاعتبار والتعامل معها بنوع من الاحتراز المنهجي يميز بين تاريخية صاحب المناقب وتاريخية مادة النموذج المنقبي.

ومهما يكن من أمر، فإن التشكيك في سند الفلاني جاء بعد وفاته بقرن وربع القرن، وكان من باب الشاذ الذي يحفظ ولا يقاس عليه. فالانطباعات التي تركها الفلاني في نفوس فطاحلة العلماء وطلاب العلم الذين التقوا به وأخذوا عنه، أو سمعوا به واستجازوه، وما ترك من آثار وصدى طيب في مهجره الحجازي؛ تعلي من شأن الرجل وما كان له من دور باق مع الزمن في عملية التواصل المعرفي بين مشرق الإسلام ومغربه. وهذا ما يقودنا إلى الحديث عمن أخذوا عنه.

تلاميذ الفلاني وأهم الآخذين عنه:

شكلت الفترة الحجازية من حياة صالح الفلاني، أوجَ عطائه المعرفي سواء في مجال التصنيف أو التدريس وإجازة المستجيزين. وبحكم تمركزه في المدينة المنورة، محط رحال المسلمين من مختلف أصقاع العالم، ذهب محقق كتابه: "إيقاظ همم أولى الأبصار" إلى القول إنه "قلَّ أن تخلوّ بلدة من بلاد الإسلام، في وقته، إلا وله منها عدة من التلاميذ كما يعلم ذلك من عني بالأثبات ومطالعة طبقات الرجال"[103].

ومع أن هذا الرأي لا يخلو من مبالغة، فإنه مما لا جدال فيه أن الآخذين عن الفلاني كانوا كُثْراً، ومن بلاد إسلامية شتى مما أعطاه صدى كبيراً على الساحة الإسلامية. ومن أشهر من آخذوا عنه ممن تلقوا آراءه بالرضا والقبول وعملوا على نشرها: محدث الحجاز محمد عابد السندي (ت. 1257هـ/1841م)، وعالم مكة ومسندها عمر بن عبد الكريم بن عبد الرسول (ت. 1249هـ/1833م)، وإسماعيل بن زين العابدين البرزنجي المدني(ت. 1250هـ/1834م)، ومحمد ابن العربي البناني المكي المغربي (ت. 1245هـ/1829م)، والشيخ محمد الحافظ بن المختار بن حبيب العلوي الشنجيطي (ت. 1247هـ/1831م)، وشيخ فاس عبد الرحمن بن أحمد الصديقي الشنجيطي (ت. 1224هـ/1809م)، وحمدون بن الحاج الفاسي (ت. 1232هـ/1823م)، ومسند المدينة المنورة زين العابدين محمد صالح بن علوي جمل الليل (ت. 1235هـ/1820م)، ومحمد صالح بن إبراهيم الريس الزمزمي المكي (ت. 1240هـ/1824م)، وعبد الرحمن الكزبري (ت. 1262هـ/1845م)، ووجيه الدين عبد الرحمن الكزبري (1221هـ/ 1806م)، ومحمد ياسين المرغيني (1255هـ/1839م)، ومسند مصر علي بن عبد البر الونائي (ت. 1211هـ/ 1796م)، وأبو الحسن علي بن محمد الباعلوي (كان حيا في 1250هـ/1834م)، ومفتي الشام عبد العزيز ابن عابدين الدمشقي (ت. 1252هـ/1836م)، ومحمد بن صالح الشعاب المدني (1240هـ/1824م)، وقاضي مكة المكرمة عبد الحفيظ العجيمي (1246هـ/1830م)، وقاضي دمشق أحمد بن عبد اللطيف البربير (ت. 1195هـ/1780م)، وإسماعيل بن إدريس الرومي، ومحمد بن هاشم

الفلاني، وأحمد بن محمد الكردي الاصطنبولي، ومحمد أمين حسن الزيلة لي وغير هؤلاء من العلماء الأعلام الذين شكلوا قنوات تواصل ثقافي مثمر ومتجدد مع الأيام من خلال المؤلفات والأسانيد.

الخاتمة:

ويستخلص مما تقدم، أن نأي الدار وخوف السبيل لم يمنعا أهل السودان الغربي من التواصل مع دار الإسلام بفضل ركاب الحج التي شكلت قنوات تواصل دائم عبر الزمن الطويل، تنوعت أشكاله ووسائله والقائمون عليه. فإذا كانت السلط السياسية المسلمة في السودان الغربي سباقة إلى تنظيم رحلات الحج وتحمل أعبائها المادية والمعنوية، فإن حجَّ الخاصة من العلماء والوجهاء قد تزايد مع الزمن وأصبح أكثر اطراداً وأبلغ أثراً في عملية التواصل الثقافي التي شملت المنطقة الممتدة من أعالي نهر السينغال إلى شواطئ البحر الأحمر، مروراً بالصحراء الكبرى والضفة الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط. والمتتبع لرحلة الفلاني وما أسالت من حبر على مدى القرون الثلاثة الماضية، يدرك ما لتلك الرحلات من أهمية في عملية التواصل الثقافي.

الهوامش:

(1) شكلت الفترة الممتدة من القرن 14 إلى القرن 16م فترة ازدهار المحور الأوسط في التجارة عبر الصحراء المتجه من منحنى النيجر إلى تلمسان عبر توات. وزادت النهضة الحفصية ابتداء من أواسط ذلك القرن من حظوة قطاع تمبكتو في هذا المحور.

(2) أبو عبيد الله محمد بن أبي بكر الزمري: **كتاب الجغرافيا**، تحقيق محمد حاج صادق، دمشق، نشر:

Bulletin d'études orientales (Institut Français de Damas), T.XXXI, 1968, p. 125

(3) **تاريخ ابن خلدون** أو **العبر وديوان المبتدأ والخبر**، اعتنى به أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، الأردن (د.ت.)، ص. 1655.

(4) راجع: جبريل ت. نياني: "مالي والتوسع الثاني للماندينغ"، ضمن **تاريخ إفريقيا العام**، المجلد الرابع، اليونسكو، باريس 1988 (129-182)، ص. 140.

(5) يسميه ابن خلدون ومن نقلوا عنه: "ماري جاطة".

(6) انظر: **رحلة العبدري** المسماة **الرحلة المغربية**، تحقيق محمد الفاسي، وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصلي، الرباط 1968، ص. 83، و**رحلة ابن بطوطة** المسماة: **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، مراجعة د. درويش الجويدي، المكتبة العصرية، بيروت 2005، ج1/23-24.

(7) **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، السفر الرابع: ممالك اليمن والمغرب الإسلامي وقبائل العرب، تحقيق د. حمزة أحمد عباس، المجمع الثقافي، أبو ظبي 2002، ص. 108.

(8) المصدر نفسه، ص. 116.

(9) نفسه، ص. 119.

(10) **العبر وديوان المبتدأ والخبر**، م. س.، ص. 1656.

(11) المقريزي ضمن: Cuoq, Josef: Recueil des sources arabes concernant l'Afrique occidentale du VIIIe au XVIe siècle (Bilad Al-Sudan), traduction et notes, Paris, C.N.R.S., 1975, p. 91-92.

(12) مادينا لي تال: "تدمور إمبراطورية مالي"، ضمن: **تاريخ إفريقيا العام**، المجلد الرابع، اليونسكو، باريس 1988 (183-197)، ص.183.

(13) راجع على سبيل المثال لا الحصر: نياني: "مالي والتوسع الثاني للماندينغ"، م.س.، ص.160، وأحمد الشكري: **الإسلام والمجتمع السوداني: إمبراطورية مالي**، المجمع الثقافي، أبوظبي 1999، ص. 187-194...

(14) **تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس**، تحقيق وترجمة هوداس ودلافوس، باريس 1913، ص. 33.

(15) ابن فضل الله العمري: **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، م.س، ص. 120.

(16) **العبر...**، م.س.، ص. 1656.

(17) **البداية والنهاية**، تحقيق ومراجعة دار أبي حيان، القامرة 1996، الجزء الرابع عشر، ص. 142.

(18) **تاريخ الفتاش**، م.س.، ص. 34.

(19) عبد الرحمن السعدي: **تاريخ السودان**، دراسة وتحقيق عبد النعيم ضيفي عثمان، دار الرشاد، القامرة 2010، ص. 23.

(20) **تاريخ الفتاش**، م.س.، ص. 33.

(21) أحمد الشكري: **الإسلام والمجتمع السوداني**، م.س.، ص. 243.

(22) د. حماه الله ولد السالم: **موريتانيا في الذاكرة العربية**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 2005، ص. 83.

(23) **الذهب المسبوك في ذكر من حج من الملوك**، تحقيق د. جمال الدين الشيال، مكتبة الثقافية الدينية، القامرة 2000، ص. 143.

(24) **العبر**، م.س.، ص. 1485.

(25) المصدر والصفحة نفسها.

(26) R. Mauny: Tableau géographique de l'ouest Africain au moyen âge, Mem.de l'IFAN, serie B, n°61, Dakar, 1961, p. 426.

(27) **مسالك الأبصار**، م.س.، ص. 121.

(28) **مسالك الأبصار**، ص. 122-125.

(29) المصدر نفسه، ص. 124

(30) نفسه، ص. 121-122.

(31) **العبر**، م.س.، ص. 1485.

(32) المصدر نفسه، ص. 124-125.

(33) يعني حجاج مالي في ركب منسا موسي.

(34) **مسالك الأبصار**، م.س.، ص. 122.

(35) **مسالك الأبصار**، م.س.، ص. 120.

(36) ترجمته في **نفح الطيب**، ج.194/2 حيث وصفه المقري ب "العالم المشهور والصالح المشكور والشاعر المذكور من أمل غرناطة من بيت صلاح وثروة وأمانة". تأدب وكان في صغره موثقا بغرناطة، ثم ارتحل إلى المشرق، فحج ولقي السلطان منسا موسى في موسم 724هـ فصحبه إلى بلاده واستوطنها ونال جاها مكيناً من السلطان، وتوطّن تنبكتو التي توفي بها سنة 747هـ/1346م.

(37) **العبر**، م.س.، ص. 1656.

(38) **تاريخ السودان**، م.س.، ص. 65.

(39) محمود كعت: **تاريخ الفتاش**، م.س.، ص.37

(40) لم يكن مسعى منسا موسى هذا الأول من نوعه في منطقة الغرب الإسلامي؛ فقبله بحوالي نصف قرن، قام أمل سجلماسة بجلب الأشراف العلويين من الحجاز وأوطنوهم ببلدتهم قصد التبرك بهم والاستفادة من جاههم.

(41) لم تحدد مصادرنا من هو هذا الشيخ ولا منزلته في السلطة في مكة التي كانت وقتها لبني قتادة من بني مطاعن الهاشميين.

(42) راجع: القلقشندي: **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء**، تحقيق د. يوسف على طويل، دار الفكر، دمشق 1987، ج.286/5.

(43) لمزيد من التفصيل حول هذا الموضوع يمكن الرجوع إلى محمد القبلي: "مساهمة في تاريخ التمهيد لظهور دولة السعديين" ضمن: **مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط**، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء 1987(79-126)، الصفحة 87 وما بعدها.

(44) **مسالك الأبصار**، م.س.، ص. 122.

(45) **العبر**، م.س.، ص. 1656.

(46) **عيسى الزواوي**: هو شرف الدين أبو الروح عيسى بن مسعود بن منصور الزواوي (نسبة إلى زواوة بالمغرب)، الفقيه العالم المتفنن الذي "انتهت إليه رئاسة المالكية بالديار المصرية والشامية. فقد تفقه ببجاية والإسكندرية، ورجع إلى فاس فولي قضاءها. ثم انتقل إلى مصر فدرّس في الأزهر وناب في الحكم بدمشق ثم بالقاهرة قبل أن ينقطع للتأليف. من مؤلفاته: إكمال الإكمال، وشرح جامع الأمهات لابن الحاجب، وشرح على المدونة، وتاريخ ومناقب مالك، ولد سنة 664هـ/1265م، وتوفى بالقاهرة سنة 743هـ/1343م. ترجمته في: ابن حجر: **الدرر الكامنة** 289/3-291، السيوطي: **حسن المحاضرة** 354/1، الزركلي: **الأعلام** 109/5...

(47) العمري: **مسالك الأبصار**، م.س.، ص. 126.

(48) **نيل الابتهاج في التطريز على الديباج**، إشراف وتقديم عبد الحميد عبد الله الهرامة، كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس1989، ص. 396.

(49) **ابن كشتغدي**: هو تاج الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن ثعلب المصري مدرس المالكية في عهده.

(50) **أبو الحسن الطليطلي**: هو أبو الحسن علي بن عيسى بن عبيد الطليطلي، أخذ بقرطبة عن عدد من علماء قرطبة وطليطلة، وكان فقيهاً وعالماً مشهوراً، روي عنه شكور بن حبيب وغيره. وذكر ابن الفرضي (**تاريخ علماء الأندلس**/251، و**بغية الملتمس**/373) أن له مختصراً "في المسائل أخذه الناس عنه وانْتُفِعَ به"، وهو المشار إليه هنا.

(51) **الذهب المسبوك**، م.س.، ص. 143.

(52) مثل ما كان الحال بالنسبة لإمام المسجد الجامع في تنبكتو سيدي أحمد وكاتب موسى الذين رحلا إلى فاس للتعلم بأمر السلطان منسا موسى.

(53) **تاريخ السودان**، م.س.، ص. 23.

(54) **مسالك الأبصار**، م.س.، ص. 107.

(55) جاء هذا التحديد لفترة مقام الفلاني عند شيخه ابن سنة في ترجمة الكتاني (**فهرس الفهارس**.902/2) للفلاني، بينما ذكر في ترجمته لابن سنة (ج.1027/2) أن الفلاني مكث معه أربع سنين، عازيا هذا الرأي إلى الفلاني نفسه في ثبته الكبير. فتأمل!

(56) **ابن سنه**: هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن سِنَّة الفلاني العمري (1042-1186هـ)، عالم بالحديث معمر، واسع الرواية، له فهرسة لشيوخه الكثر رواها عنه تلميذه الفلاني الذي شهر أسانيده وعرّف الناس بها. وكان ابن سنة قد تنقل في طلب العلم بين بوادي وحواضر بلاد السودان والصحراء والمغرب مثل شنجيطي، وتوات، وتنبكتو، وأزواد، وولاتة، وتيشيت، وفاس، ومراكش، وسجلماسة.. ولازم محمد بن أحمد بن محمود بن أبي بكر بغيغ الونكري التنبكتي وأجازه إجازة عامة ودعا له أن يرزقه الله العلم النافع وطول العمر في طاعة الله، وبعد وفاته، رحل إلى ولاتة حيث لازم أبا عبد الله مولاي محمد الشريف الولاتي (ت. 1101هـ/1689م) اثنين وثلاثين سنة، واستخلفه في التدريس والإمامة لما حج، وأشركه في إجازات العلماء له.

(57) عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني: **فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات**، باعتناء الدكتور إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي بيروت، ط.1982/2، ج.1026/2.

(58) **الغرياني**: هو أبو عبد الله محمد بن علي الغرياني (ت. 1195هـ/1781م)، التونسي الطرابلسي، أمام محدث وصاحب تصانيف.

(59) **الكوشي**: هو أبو الفلاح صالح بن حسين الكواشي (1138-1218هـ/1736-1804م)، فقيه وأصولي تونسي...

(60) **السوسي**: لعله محمد بن أحمد السوسي التونسي الذي تفقه بالأزهر، وتصدر للتدريس والقضاء في بلدته سوسة ثم في مدينة تونس، أو أبو محمد حسن بن

محمد الهدة السوسي، رئيس المفتين بتونس في عهده وفقيهها المتفنن المتوفى عن عمر مديد سنة 1248هـ/1838م.

(61) **التاودي بن سودة**: هو محمد بن الطالب بن علي بن سودة التاودي المري الفاسي، الفقيه المغربي الشهير وشيخ الجماعة بفاس، له: زاد المجد الساري على صحيح البخاري، وحاشية على صحيح مسلم، توفي 1209هـ/1795م.

(62) **معجم الشيوخ المسمى رياض الجنة أو المدمش المطرب**، صححه وخرج حواشيه عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، بيروت 2003، ص. 205-206.

(63) الصعيدي: هو علي بن أحمد بن مكرم الله المنسفيسي العدوي المالكي الأزمري الشهير بالصعيدي (1112-1189هـ)، فقيه مالكي محقق، وأصولي متكلم، له عدد من التصانيف.

(64) **راجع: فهرس الفهارس والأثبات**، م.س.، ج.2/986.

(65) **فهرس الفهارس والأثبات**، م.س.، **ج.1/298.**

(66) صالح بن محمد الفلاني: **إيقاظ همم أولى الأبصار للاقتداء بسيد المهاجرين والأنصار وتحذيرهم عن الابتداع الشائع في القرى والأمصار من تقليد المذاهب مع الحمية والعصبية بين فقهاء الأعصار**، تحقيق أبي عماد السخاوي، دار الفتح، الشارقة 1997، ص. 14.

(67) لعله يقصد مالك بن أبي السمح (ت. 85هـ/704م)، الذي عده السيوطي من الأئمة المجتهدين، وولي قضاء مصر سنة 83-84 هـ في عهد عبد العزيز بن مروان الذي كان يجله ويبعث إليه بالهدايا سنويا.

(68) **إيقاظ همم أولى الأبصار**، م.س.، ص. 92.

(69) نفسه، ص. 214.

(70) نسبة إلى خليل بن إسحاق المالكي صاحب **المختصر** المعروف باسمه.

(71) نسبة إلى كتاب **كنز الدر** في الفقه الحنفي.

(72) نسبة إلى كتابي أسعد أفندي، مفتي المدينة المنورة، وخير الدين إلياس، في الفقه الحنفي.

(73) نسبة إلى كتاب: **منهاج الطالبين** للإمام النووي.

(74) **إيقاظ همم أولى الأبصار**، م.س.، ص.85-86.

(75) **المصدر نفسه**، م.س.، ص.208-209.

(76) نفسه، ص. 148.

(77) **فهرس الفهارس والأثبات**...، م.س.، ج.2/901.

(78) الحبيب عيدروس بن عمر الحبشي: **عقد اليواقيت الجومرية وسمط العين الذهبية بذكر طريق السادات العلوية وما لهم من الإسنادات القوية وما أُثر عن بعضهم من إجازة ووصية**، تحقيق، دار، ج.1/330-331.

(79) هو محمود خطاب السبكي (ت. 1352هـ/1932م).

(80) هذا الكتاب لشرف الحق العظيم آبادي المتوفى بعد 1310هـ/1892م.

(81) **فهرس الفهارس والأثبات**...، م.س.، ج.2/901-906.

(82) المصدر نفسه، ج. 1/288.

(83) د. محمد علي فهيم بيومي: "العالم الأثري الشيخ صالح الفلاني وجهوده السلفية في المدينة المنورة"، **مجلة الدارة**، العدد 2/1427هـ(9-58)، ص. 9.

(84) عدنا لطبعة دار الشروق، جدة 1405هـ من هذا المصنف بتحقيق عامر حسن صبري.

(85) **فهرس الفهارس والأثبات**، م.س.، ج. 2/975.

(86) **علو السَّند**: هو قلة رجال سند الحديث بالنسبة إلى سند آخر يرد به ذلك الحديث بعينه. فالسند الأول يسمى عاليا، والثاني يسمى نازلا. فكلُّ ما قلّتْ رجَالُهُ "عَلا"، وكل ما كثرت "نَزَل". والعلو نوعان: **علو عدد**، وهو ما قلّ رجاله؛ و**علو صفة**، وهو أن يكون رجال السند أثبت في الحفظ والعدالة من السند الآخر.

(87) **مولاي الشريف**: هو أبو عبد الله مولاي محمد الشريف الولاتي الذي حجَّ مع والده سنة 975هـ/1567م ولم يتجاوز عمره 15 عاما، وزار معه بغداد ودمشق، وحلب، واستجاز له ممن لقي من العلماء والمحدثين. راجع عنه الكتاني: فهرس الفهارس، ج.2/1073-1076.

(88) الفلاني: **قطف الثمر في رفع أسانيد المصنفات في الفنون والأثر**، م.ي، ص. 24-25.

(89) نفسه، ص. 44.

(90) وردت مآخذ الفاسي على صالح الفلاني وسنده في الصفحات 202-207 ضمن ترجمة عبد الله السنوسي وسند والده من **معجم شيوخ الفاسي** المسمى: **رياض الجنة أو المدمش المطرب**، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت 2003.

(91) **رياض الجنة**، م.س.، ص. 202.

(92) نفسه، ص. 204.

(93) **موريتانيا في الذاكرة العربية**، م.س.، ص. 151-157.

(94) المرجع نفسه، ص. 157.

(95) **فهرس الفهارس والإثبات**، م.س.، ج.2/1029.

(96) رجعنا إلى نسخة الإلكترونية من **العتب الإعلاني لمن وثّق صالحاً الفلاني**، مؤلفة من 29 صفحة بخط مغربي جميل ولا تحمل رقما. وهي بخط محمد بن الأمين بو خبزة الحسني الناقل لها عن نسخة المؤلف، وكان الفراغ منها ضحى يوم السبت رابع وعشر محرم الحرام عام ستة وسبعين وثلاثمائة.

(97) **العتب الإعلاني**، ص. 1.

(98) نفسه، ص.2.

(99) نفسه، ص. 5.

(100) **العتب الإعلاني**، ص. 27.

(101) المصدر نفسه، ص. 9.

(102) نفسه، ص. 15.

(103) **إيقاظ همم أولى الأبصار**، م.س.، مقدمة التحقيق، ص. 13.